

الأصولية اليهودية في المجتمع الإسرائيلي

إسرائيل شاحك ونورتون ميتسفنسكي

يكاد كل يهودي إسرائيلي على قدر من المعرفة أن يكون مطلعاً على الحقائق الخاصة بالمجتمع اليهودي الإسرائيلي، التي نصفها في هذا الكتاب⁽¹⁾. لكن تلك الحقائق غير معروفة لدى معظم المهتمين من اليهود وغير اليهود خارج إسرائيل، الذين لا يعرفون العبرية، وبالتالي لا يستطيعون قراءة معظم ما يكتبه اليهود الإسرائيليون عن أنفسهم بالعبرية. فتلك الحقائق نادراً ما يجري ذكرها أو يتم وصفها بطريقة غير صحيحة في التغطية الإعلامية الهائلة للأوضاع الإسرائيلية في الولايات المتحدة وأماكن أخرى من العالم. لذلك، يتمثل الهدف الأساسي لهذا الكتاب في تزويد هؤلاء الأشخاص الذين لا يقرأون العبرية بمزيد من الفهم لأحد الجوانب الهامة للمجتمع اليهودي الإسرائيلي.

يحدد هذا الكتاب الأهمية السياسية للأصولية اليهودية في إسرائيل، وهي دولة قوية في الشرق الأوسط وخارجه، ذات نفوذ كبير في الولايات المتحدة. أما الأصولية اليهودية فتعرف بإيجاز، هنا، كقناعة بأن الأرثوذكسية اليهودية، القائمة على التلمود البابلي، وبقية الأدبين التلمودي والهالاخي، ما زالت صالحة [في نظر

أنصارها] وستبقى كذلك إلى الأبد.

يعتقد الأصوليون اليهود بأن التوراة لا تصلح كمرجعية ما لم تُفسر بطريقة صائبة بواسطة الأدب التلمودي . وهذه الأصولية لا توجد في إسرائيل بمفردها بل في كل دولة تعيش فيها طائفة يهودية كبيرة الحجم . وفي البلدان التي يشكل فيها اليهود أقلية صغيرة الحجم مقارنة بالعدد الإجمالي للسكان، تقتصر الأهمية العامة للأصولية اليهودية، بصفة أساسية، على جمع المال والحصول على الدعم السياسي لاتباع الأصولية في إسرائيل.

أما أهميتها في إسرائيل فأعظم شأنًا، لأن أتباعها يمكنهم التأثير، ويؤثرون فعلا، على الدولة بطرق مختلفة . إن تشكيلة الأصولية اليهودية في إسرائيل مثيرة للدهشة، فعدد من الأصوليين، مثلا، يريدون إعادة بناء الهيكل على جبل الهيكل في القدس، أو يريدون على الأقل بقاء موقع الهيكل - وهو مكان إسلامي مقدس للصلاة في الوقت الحاضر - خاليا من الزوار . لن يحظى هدف كهذا بتأييد معظم المسيحيين في الولايات المتحدة، لكن عددا كبيرا من اليهود غير الأصوليين في إسرائيل يؤيدون ويدعمون مطلبًا كهذا ومطالب مشابهة . من الجلي أن بعض تنويعات الأصولية اليهودية أخطر من غيرها، فهذه الأصولية ليست قادرة على ممارسة التأثير على السياسة التقليدية لإسرائيل وحسب، بل يمكنها التأثير على السياسة النووية أيضا . ويمكن للعواقب المحتملة للأصولية التي يخشاها الناس في بلدان أخرى أن تحدث في إسرائيل.

يمكن فهم أهمية الأصولية في إسرائيل، فقط، في سياق المجتمع اليهودي الإسرائيلي، وكجزء من إسهام الديانة اليهودية في الانقسامات الاجتماعية الداخلية . لذلك، يبدأ تناولنا لهذا الموضوع العريض بالتركيز على الوسائل التي يقسم بها المراقبون المطلعون المجتمع اليهودي الإسرائيلي على أسس سياسية ودينية . ثم ننتقل إلى شرح أسباب تأثير الأصولية بدرجات متفاوتة على يهود إسرائيليين آخرين، مما يمكن هذه الأصولية من حيازة قوة سياسية أكبر بكثير من النسبة المثوية لمعتنقيها.

يقوم التقسيم الثنائي للمجتمع اليهودي الإسرائيلي على الاعتراف بدرجة الأدلجة العالية لليهود الإسرائيليين كجماعة . ويمكن التحقق من هذا الأمر بالنظر إلى مشاركتهم العالية في الانتخابات، التي تتجاوز في العادة ثمانين بالمائة من إجمالي الأصوات . ففي انتخابات عام ١٩٩٦ شارك ما يزيد عن ٩٥ بالمائة من اليهود

العلمانيين الأغنى والأكثر تعليماً، ومن اليهود المتدينين في مختلف قطاعات التعليم وفئات الدخل. وبعد حسم العدد الكبير لليهود الإسرائيليين المقيمين خارج إسرائيل (ما يزيد عن ٤٠٠ ألف نسمة) - لم يشارك معظمهم في الانتخابات - يمكن القول، بلا مجازفة، أن كل الأشخاص المؤهلين للتصويت في هاتين الفئتين الهامتين من السكان شاركوا في الانتخابات.

يفترض معظم المراقبين السياسيين الإسرائيليين في الوقت الحاضر بأن اليهود الإسرائيليين ينقسمون إلى فئتين: إسرائيل أ وإسرائيل ب. أما إسرائيل أ - المعتبرة في أغلب الأحيان «يسار» - فيمثلها سياسياً حزباً العمل وميريتس، بينما تتكون إسرائيل ب - المعتبرة «يمين» أو اليمين والأحزاب الدينية - من كافة الأحزاب اليهودية الأخرى. تعتنق كل إسرائيل أ تقريباً والغالبية العظمى من إسرائيل ب (باستثناء بعض الأصوليين اليهود) الأيديولوجيا الصهيونية بقوة، وهي أيديولوجيا تؤمن بأن على جميع اليهود، أو غالبيتهم العظمى، الهجرة إلى فلسطين، التي باعتبارها أرض إسرائيل تخص جميع اليهود، ويجب أن تكون دولة يهودية. ورغم ذلك، توجد عداوة قوية ومتصاعدة بين هاتين الشريحتين في المجتمع الإسرائيلي.

ثمة العديد من أسباب تلك العداوة. أما السبب الذي يعنينا في هذه الدراسة فيتمثل في أن إسرائيل ب، بما فيها العناصر العلمانية، متعاطفة مع الأصولية اليهودية، بينما لا تتعاطف إسرائيل أ معها. ويتضح من دراسة نتائج الانتخابات على مدار فترة طويلة من الوقت بأن إسرائيل ب تحقق بشكل مطرد تفوقاً عددياً على إسرائيل أ. وفي هذا ما يشير إلى التزايد المطرد لعدد اليهود المتأثرين بالأصولية. قدم باروخ كيمرلنغ، الأستاذ في الجامعة العبرية - قسم علم الاجتماع - في مقاله «الديانة، القومية والديمقراطية في إسرائيل» المنشورة عام ١٩٩٤، معطيات تتعلق بانقسام المجتمع اليهودي الإسرائيلي على أسس دينية. وبيّن كيمرلنغ، استناداً إلى عديد من الدراسات، بأن المجتمع الإسرائيلي منقسم على أسس دينية أكثر مما يفترض البعض خارج إسرائيل، حيث تكتسي القناعة بتعميمات من نوع «ما فيه مصلحة اليهود» مصداقية أكبر مما لها في إسرائيل.

كما أشار كيمرلنغ، استناداً إلى مسح أجراه معهد غوتمان المرموق في الجامعة العبرية في القدس، إلى تصريح ١٩ بالمائة من اليهود الإسرائيليين بأنهم يؤدون طقوس الصلاة يومياً، بينما ذكر ١٩ بالمائة بأنهم لن يدخلوا إلى كنيس مهما كانت الظروف. وقد استنتج من هذه المعطيات، إلى جانب باحثين تأثروا بتحليل المعهد

ودراسات أخرى، وجود نواة صلبة في إسرائيل أ وإسرائيل ب تتكوّن من متحزبين يحملون أفكارا معارضة للديانة اليهودية. وهذه النتيجة صحيحة إلى حد ما. ومع ذلك، يمكن على سبيل التعميم تقسيم الموقف من الدين في المجتمع اليهودي الإسرائيلي إلى ثلاث فئات : يمارس اليهود المتدينون تعاليم الديانة كما نص عليها الحاخامات الأرثوذكس، الذين يركز العديد منهم على الالتزام بالطقوس أكثر من مسألة الإيمان (عدد اليهود الإصلاحيين أو المحافظين قليل في إسرائيل) ، بينما يحافظ اليهود التقليديون على بعض التعاليم الأكثر أهمية وينتهكون ما لا يعجبهم ، لكنهم يحترمون الحاخامات والدين. وبالنسبة للعلمانيين فقد يذهبون إلى الكنيس، لكنهم لا يحترمون الحاخامات أو المؤسسة الدينية. وكثيرا ما يكون الفرق بين اليهودي التقليدي والعلماني غائما، لكن الدراسات المتوفرة تصف ما بين ٢٥ إلى ٣٠ بالمائة من اليهود الإسرائيليين كعلمانيين، وما بين ٥٠ إلى ٥٥ بالمائة كتقليديين، وحوالي ٢٠ بالمائة كمتدينين. ومن الواضح أن اليهود التقليديين ينتمون إلى معسكري إسرائيل أ وب.

ينقسم اليهود الإسرائيليون المتدينون إلى جماعتين متميزتين، فيدعى أعضاء الجماعة الأكثر تطرفا في التدين بالحريديم (المفرد حريدي أو حريد) ، ويدعى أعضاء الجماعة المعتدلة بالقوميين المتدينين، وقد يدعى هؤلاء، أحيانا، «أصحاب الطواقي المشبوكة» لأنهم يشبكون «الكيبا» على رؤوسهم. يضع الحريديم عادة طواقي سوداء اللون، لكنهم لا يشبكونها أبدا، أو يعتمرون قبعات، كما يرتدي القوميون المتدينون الملابس الشائعة بين بقية المواطنين في إسرائيل، بينما يرتدي الحريديم ملابس سوداء بصورة دائمة في أغلب الأوقات.

ينقسم الحريديم أنفسهم إلى حزبين. الأول، يهودوت هتوراه (يهودية الشريعة) وهذا حزب الحريديم الاشكناز من أصول ترجع إلى أوروبا الشرقية، ويتكون من ائتلاف بين جماعتين. والثاني، شاس حزب الحريديم الشرقيين من أصول شرق أوسطية. وينتظم القوميون المتدينون في الحزب القومي الديني.

ويمكننا بواسطة تحليل الصوت الانتخابي عام ١٩٩٦، مع بعض التعديلات الضرورية، تقدير النسبة المئوية لهاتين الفئتين من المتدينين مقارنة مع العدد الإجمالي للسكان. ففي عام ١٩٩٦ فازت الأحزاب الحريدية مجتمعة بـ ١٤ مقعدا من أصل ١٢٠ من مقاعد الكنيست : فاز شاس بعشرة مقاعد ويهودوت هتوراه بأربعة مقاعد. كما فاز الحزب القومي الديني بتسعة مقاعد.

وإذا صح أن بعض اليهود الإسرائيليين صوتوا لحزب شاس بفضل التعاويد والتماثم التي وزعها الحزب زاعما سريان مفعولها بعد تصويت الشخص المعني لصالحهم. فمن الصحيح أيضا أن بعض أعضاء الحزب القومي الديني وأنصاره صوتوا للأحزاب اليمينية العلمانية. ومع وضع تلك الأمور في الحسبان، ربما يشكل الحريديم ١١ بالمائة من عدد الإسرائيليين، و١٣,٤ من عدد اليهود الإسرائيليين، وربما يشكل الحزب القومي الديني ٩ بالمائة من الإسرائيليين و١١ بالمائة من اليهود الإسرائيليين.

تحتاج المعتقدات الأساسية لهاتين الجماعتين من اليهود المتدينين إلى بعض الشرح التمهيدي. فكلمة "حريد" كلمة عبرية شائعة معناها «التقي» وكان معناها خلال التاريخ اليهودي المبكر «مخافة الله» أو التقوى الاستثنائية. وفي أواسط القرن التاسع عشر تم تبني الكلمة في ألمانيا والنمسا في بداية الأمر، وفي أجزاء أخرى من العالم في وقت لاحق، كاسم لحزب اليهود المتدينين المعارضين لكافة أشكال التغيير. فقد ظهر الحريديم الاشكناز كحركة رجعية معادية للتنوير اليهودي عموما، وللإهود الذين رفضوا قبول السلطة المطلقة للحاخامات وأدخلوا تغييرات على طرق العبادة وأساليب الحياة. وعندما أدرك الحريديم بأن كافة اليهود تقريبا قبلوا تلك التغييرات، ازداد تطرفهم فحظروا كل أشكال التغيير. وما زالوا يصرون، حتى الوقت الحاضر، على التقيد الحرفي بتعاليم الهالاخاه.

وقد يصلح ما ذكرناه عن الزي الأسود سابقا كأحد الأمثلة التوضيحية لمعارضة التغيير من جانبهم. كان ذلك الزي موضحة شائعة بين اليهود في أوروبا الشرقية عندما شكّل الحريديم أنفسهم كحزب. وكان اليهود قبل ذلك الوقت يرتدون أزياء متنوعة لا تختلف كثيرا عن أزياء جيرانهم غير اليهود في أغلب الأحيان. وبعد زوال تلك الموضة ارتدى اليهود، ماعدا الحريديم، أزياء مختلفة.

علاوة على ذلك، لا تفرض الهالاخاه على اليهود ارتداء ثياب سوداء أو معاطف سوداء ثقيلة، وقبعات ضخمة من الفراء، في فصل الصيف الحار، أو في أي وقت آخر. ومع ذلك، يواصل الحريديم في إسرائيل ارتداء تلك الثياب كتعبير عن معارضتهم للتغيير، ويصرون على الحفاظ على ذلك الزي كما كان في أوروبا الشرقية حوالي العام ١٨٥٠. ولا تحتل الاعتبارات الأخرى، ومنها المناخية، أدنى قيمة في هذا المجال.

خلافًا للحريديم، قام القوميون المتدينون بتسوياتهم مع الحداثة في مطلع القرن

العشرين، عندما أسفر الخلاف بين جماعتي اليهودية المتدينة عن نفسه للمرة الأولى في فلسطين. ويمكن ملاحظة هذا الفرق على الفور بالنظر إلى ثيابهم، وإلى جانب الكيبا الصغيرة، ثمة ما هو أكثر أهمية ويتمثل في المراعاة الانتقائية لتعليم الهالاخاه، وفي رفضهم لكثير من التعاليم الخاصة بالنساء. فالحزب القومي الديني لا يتوانى عن قبول النساء في عضويته، وتسليمهن مواقع المسؤولية في العديد من منظماته. وقد وُزِعَ الحزب في انتخابات عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٦ إعلانا يضم صور شخصيات عامة، بينها نساء يؤيدنه، كما زعم تأييد النساء عموما له من خلال دعايته المتلفزة. لم يفعل الحريديم ولن يفعلوا ذلك. وحتى عندما قرر الحريديم، الذين حرّموا على أنفسهم مشاهدة التلفزيون، تقديم برامج تلفزيونية انتخابية موجهة إلى اليهود، أصروا على مشاركة الرجال فقط. وخلال الحملة الانتخابية في عام ١٩٩٢، استشار محررو مجلة حريدية أسبوعية الرقيب الحاخامي بشأن نشر إعلان الحزب القومي الديني المذكور أعلاه، فأمر الرقيب الحاخامي بنشر الإعلان شريطة محو صور النساء. وقد امتثل محررو الجريدة للأمر.

رفع الحزب القومي الديني دعوة قضائية على الجريدة، مع المطالبة بدفع تعويضات، أمام المحاكم العلمانية الإسرائيلية، متجاهلا أوامر الحاخامات الحريديم بحظر استخدام المحاكم العلمانية لتسوية الخلافات بين اليهود.

ورغم ذلك، يمكن القول بأن التسوية القومية - الدينية مع الحداثة في ما يخص النساء معقدة في كثير من جوانبها. فالهالاخاه تحظر على الذكور اليهود الاستماع لغناء النساء، سواء كن في جوقة أو بمفردهن، وبصرف النظر عن مضمون الأغنية. تم النص على هذا الأمر بصفة مباشرة في الحكم الهالاخي القاضي باعتبار صوت المرأة عورة. وقد جرى تفسيره في الأحكام الهالاخية اللاحقة بالقول أن كلمة «صوت» تعني غناء المرأة وليس كلامها. ترد هذه الفكرة المستمدة من التلمود في كل قواعد الشريعة، فالذكر اليهودي الذي يستمع بكامل إرادته لغناء امرأة يرتكب خطيئة تعادل الزنا أو الفسق. ورغم ذلك، تستمع الغالبية العظمى من أعضاء الحزب القومي الديني لغناء النساء، مما يعني بأنها ترتكب «الفاحشة» بصورة روتينية.

لم يشغل بعض المتشددین في الحزب، خاصة من المستوطنين في الضفة الغربية، أنفسهم بهذه المشكلة وحسب، بل حاولوا التأقلم معها أيضا، بواسطة حلول مبتكرة. ففي أوائل التسعينات أسس بعض المستوطنين محطة إذاعية جديدة تدعى القناة ٧، وأدركوا بأن نجاح محطتهم والإقبال عليها من جانب اليهود الإسرائيليين يعتمد

على بث أغاني شائعة لمغنين مشهورين بينهم نساء أيضا. لكن الرقيب الحاخامي رفض انتهاك الهالاخاه، أي السماح للذكور بالاستماع لغناء النساء وبالتالي ارتكاب “الفاحشة”. وقد عثر المستوطنون، بعد مزيد من الأخذ والرد، على طريقة مقبولة ما زالت مستخدمة حتى الآن. يؤدي رجال، حسب هذه الطريقة، الأغاني المشهورة التي تغنيها النساء، ثم يتم تحويل أصواتهم إلكترونيا إلى أصوات نسائية، وتقوم القناة ٧ ببثها. اقتنع جزء من الجمهور التقليدي بهذه التجربة، ومن جانبهم يصر حاخامات الحزب القومي الديني على عدم وجود فاحشة في استماع رجال لغناء النساء.

رفض الحريديم، بطبيعة الحال، وأدانوا هذا النوع من التأقلم، كما رفضوا حتى الوقت الحاضر الاستماع إلى القناة ٧. والأهم أن تزايد قوتهم السياسية إلى حد ما في انتخابات ١٩٨٨ مكنهم من فرض موقفهم في هذا الشأن على الدولة وتعديل الجلسة الافتتاحية الأولى للكنيست. جرت العادة في السابق على بدء الحفل الافتتاحي بغناء جوقة تتكون من رجال ونساء للنشيد القومي الإسرائيلي “هتكفا”. لكن حساسية الحريديم بعد انتخابات عام ١٩٨٨، أدت إلى استبدال الجوقة المختلطة بأحد المغنين الذكور. وبعد انتخابات عام ١٩٩٢، التي فاز فيها حزب العمل، قامت جوقة رجال تتكون من أعضاء الحاخامية التابعة للجيش بغناء “هتكفا”.

كيف يتمكن الحريديم، الذين يشكلون نسبة مئوية صغيرة من اليهود الإسرائيليين - بمفردهم أحيانا، أو بمساعدة الحزب القومي الديني - من فرض إرادتهم على بقية المجتمع؟

يتمثل الجواب السهل في القول بأن حزبي العمل والليكود يتملقان الحريديم للحصول على تأييدهم السياسي. لكن هذا التفسير لا يكفي. فقد استمر التملق بين عامي ١٩٨٤ و ١٩٩٠ عندما شكّل الليكود والعمل حكومة ائتلافية، ولم يكن الحصول على تأييد الحريديم من ضرورات السياسة آنذاك.

علاوة على ذلك، لا تضع هذه الإجابة في الحسبان بصفة أساسية صلات القرابي الخاصة بين جميع الأحزاب الدينية، المعرفة كأصولية منذ الثمانينات، وحزب الليكود والأحزاب اليمينية العلمانية الأخرى، وهي صلات تقوم على نظرة مشتركة إلى العالم، وتتموضع في صميم السياسة الإسرائيلية (تشبه هذه الصلة التماثل القائم بين الأصوليين المسلمين والمسيحيين وأحزابهم اليمينية العلمانية).

يوضح نموذج الحزب القومي الديني، السهل نسبياً، تلك الصلات بصورة جيدة. فالحزب يعترف بالمرجعيات الهالاهية نفسها التي تعترف بها الأحزاب الحريدية، لكنه لا يتبعها في كل الأحوال. كما يلتزم الحزب بالمثل نفسها الخاصة بالماضي اليهودي، والأهم بالمستقبل عندما يتأكد انتصار إسرائيل على غير اليهود. أما الفرق بينه وبين الحريديم فناجم عن قناعته بأن الخلاص قد بدأ وسرعان ما سيتم استكماله بالقدوم الوشيك للميسيا (المُخَلَّص)، بينما لا يشارك الحريديم الحزب هذه القناعة. كما يعتقد الحزب بأن الظروف الخاصة في بداية الخلاص تبرر الابتعاد مؤقتاً عن النموذج التقليدي لعملية الخلاص. وفي دعمه أحياناً لقيام بعض العلماء التلموديين بالخدمة العسكرية ما يشكل مثلاً مناسباً في هذا المجال.

وقد ترعزعت الأفكار التحريفية التي يتبناها الحزب القومي الديني منذ عقد السبعينات، بفضل النفوذ المتصاعد للحريديم في أوساط أعداد متزايدة من أنصار الحزب، الرافضين للانحراف عن القواعد التلمودية الصارمة، والمؤيدين للمواقف الحريدية. ورغم ذلك، تحسّن الوضع إلى حد ما بفعل تنامي مكانة المستوطنين التابعين للحزب، وما ينالونه من احترام كرواد للميسائية. وربما يكون اغتيال رابين على يد أحد الميسائيين قد زاد في الوقت الحاضر من مكانة الحريديم.

يرجع نفوذ المتدينين على اليمين الإسرائيلي في معسكر إسرائيل ب إلى طبيعته العسكرية، ونظرتهم المشتركة على نطاق واسع إلى العالم، إذ يعتقد اليهود العلمانيون وأصحاب النزعة العسكرية آراء سياسية، ويستخدمون لغة تشبه آراء ولغة المتدينين "فالدّم اليهودي" في نظر غالبية أنصار الليكود هو ما يخص اليهود بمكانة خاصة تختلف عن الأغيار، بما فيهم الأغيار الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية ويخدمون في الجيش. وفي نظر اليهود المتدينين ليس لدم الأغيار قيمة من ناحية جوهرية، بينما يرى الليكود لدمهم قيمة محدودة فقط. وقد نال مناحيم بيغن بفضل استخدامه البارع لتعبيرات كهذه حول الأغيار أصوات الناخبين وحقق شعبية في أوساط الناس، وهذه حالة تستحق النظر.

كما أن الفرق بين العمل والليكود، في هذا المجال، مسألة تتعلق باللغة، ورغم ذلك فهو فرق مهم لأنه يكشف عن جانب ما من رؤية العالم. ففي عام ١٩٨٢، مثلاً، عندما احتل الجيش الإسرائيلي بيروت، لم يفسر ممثل العمل اسحق رابين - رغم دعواته إلى السياسة نفسها التي يفضلها شارون والليكود - مجازر صبرا وشاتيلا كما فسرها مناحيم بيغن بقوله: «أغيار يقتلون أغياراً آخرين، ويلقون اللوم على

اليهود». ولو افترضنا أن رابين كان قادرا على قول ذلك الكلام، فإنه يعرف بأن معظم مؤيديه من العلمانيين في العمل، الذين يميزون بين أغيار يكرهون اليهود وأغيار لا يكرهونهم لن يقبلوا تصريحات من هذا النوع، ولن يتورعوا عن القول بأنها غير صحيحة وضارة.

يتجلى النفوذ الديني أيضا في الإجلال العام الذي يكنه اليمين للماضي اليهودي، وفي إصراره على أن لليهود حقا تاريخيا في إسرائيل موسعة تمتد خارج حدودها الحالية. كما يصر أعضاء اليمين الإسرائيلي، أكثر من العلمانيين الآخرين على تفرّد اليهود. وقد كانت الغالبية العظمى من اليهود على امتداد قرون من وجودهم على غرار الحريديم في الوقت الحاضر. لذلك، فإن اليهود الذين يجلون الماضي اليهودي في الوقت الحاضر، كدليل على تفرّد اليهود، يحترمون اليهود المتدينين إلى حد ما باعتبارهم ممثلين لذلك الماضي.

يتمثل قسط كبير من تركيز اليمين على تفرّد اليهود في كراهيته لمفهوم «الحالة السوية»، أي أن اليهود يشبهون الشعوب الأخرى، ولديهم الرغبة نفسها في الاستقرار على غرار بقية الشعوب. كما أن بعض أوجه التماثل بين اليهود العلمانيين والمتدينين ليست أيديولوجية في المقام الأول. فكثير من أنصار الليكود، بصرف النظر عن أصلهم الاشكنازي أو السفاردي، يجلون الحاخامات باعتبارهم شخصيات عظيمة، وتؤثر فيهم ذكريات الطفولة عن العائلة البطيركية، التي كان الجد يسيطر فيها على تربية الأولاد، بينما “تلتزم النساء حدودهن”. ورغم أن الطليعة المتدينة هي التي تعبر عن أفكار كهذه في أغلب الأحيان، إلا أن هذه الاعتبارات ذات نفوذ على اليهود العلمانيين في معسكر اليمين. وكثيرا ما يبالغ اليمين في وصف جمال وتفوق الماضي اليهودي، خاصة في سياق دفاعه عن ضرورة الحفاظ على التفرّد اليهودي.

يشارك المتدينون العلمانيين في معسكر اليمين المخاوف والمعتقدات نفسها. وقد بين دورون روزنبلاوم، استنادا إلى مصادر عديدة، في مقالة نشرتها صحيفة هاآرتس المرموقة يوم ٦ أكتوبر ١٩٩٣، مسألة هذه المشاركة بتقديم مقتطفات لزعماء ليكوديين يستهدفون إقناع الإسرائيليين بالطبيعة الخطرة لعملية السلام وما تنطوي عليه من مجازفة، مع مواصلة القول بأن الليكود هو الذي بدأ تلك العملية. نقل روزنبلاوم التصريح التالي لعضو الكنيست الليكودي عوزي لنداو، الذي اختير بعد انتخابات عام ١٩٩٦ رئيسا للجنة الأمن والشؤون الخارجية في الكنيست

إذا اتبعنا سياسة رابين تجاه سوريا، سيستيقظ [اليهود الإسرائيليون] ذات صباح على مشهد قوافل الدبابات السورية تهبط من الجولان كقطع من الأغنام. ستعرض مستوطنات الجليل آنذاك إلى قوة نيران أقوى مما حدث في [حرب] عام ١٩٧٣. وبما أن فكرة إبادة الإسرائيليين من موضوعات الوعي السوري، فإن أي انسحاب من مرتفعات الجولان سيعجل من اللحظة التي تقترب فيها السكن السورية المشرعة من عنق كل سكان الجليل. السياسة السورية تعتمد على شيفرة جينية وليست مسألة تقبل التغيير السريع.

من الواضح، جريا على كيلها بمكيالين، أن الصحافة الغربية - التي كانت ستنتقض بالتأكيد على سياسي غير يهودي يعزو السياسة الإسرائيلية إلى شيفرة جينية يهودية لا تقبل التغيير السريع - تجنبت التعليق على تصريح لنداو.

نقل روزنبلاوم، أيضا، تصريحات عن بيني بيغن، أحد القادة الأساسيين في الليكود، عبّر فيها عن خشيته من قيام سوريا بهجوم مباشر على إسرائيل. وهذا الخوف يجري التعبير عنه عموما من جانب معظم الأحزاب السياسية في إسرائيل. لكن ما تمتاز به إسرائيل ب، كما عبّر عنه بيني بيغن بدقة، يتمثل في رؤية أهداف الغزو السوري باعتبارها نفس "أهداف مرتكبي المذابح في كيشينيف" أي قطع أعناق اليهود. إلى جانب ذلك، أضاف بيغن بأن علماء الذرة سيقدمون يد العون للمحاولة السورية.

إن مقارنة الطائفة اليهودية غير المسلحة، الأقلية الصغيرة في الإمبراطورية الروسية، مع إسرائيل وجيشها، يكشف عن موقف مشترك تجاه الماضي اليهودي؛ موقف تعنقه الأحزاب اليمينية العلمانية وأحزاب المتدينين. لا يعترف هذا الموقف بالتطور التاريخي، فاليهود في كل الظروف والأحوال يمثلون الضحية الحقيقية أو المحتملة للأغيار.

ينظر روزنبلاوم، المنتمي إلى إسرائيل، إلى تلك التصورات باعتبارها تصورات متضاربة. فيلاحظ أن لنداو اعتبر السوريين كالأغنام ويسأل: "هل أراد لنداو القول بأننا ذئاب؟" ثم يقدم تحليله كيفية نجاح هذا النوع من الكلام في الإقناع:

«ثمة شك منذ فترة طويلة بأن أعضاء المعسكر القومي [أي اليمين العلماني] يستخدم لغة القوة المجنونة لتغطية خوفه الكامن من العالم برمته. لم يظهر

خوف كهذا بأي شكل من الأشكال عندما أقيمت دولة إسرائيل. فقد نجح العمل، بصرف النظر عن أخطائه، في تنحية ذلك الخوف جانبا، بكل وسيلة ممكنة، ووضع مكانه نظرة إيجابية وبراعماتية تجاه العالم، أما الليكود، الذي يستأنف الدلالة التاريخية للخوف، فلم ينجح في ذلك.

إن اليهود الشوفيين الذين يتحدثون بمنتهى الثقة عن قوة إسرائيل وقدرتها على فرض إرادتها على الشرق الأوسط هم أكثر من يعاني من هذه المخاوف. الأشخاص أنفسهم الذين يتوقعون تجدد الهولوكوست على الفور إذا قدمت إسرائيل أية تنازلات للعالم العربي هم من يعلنون عادة بأن الجيش الإسرائيلي لو لم يكبح السياسيون جماحه، أو الأميركان أو الجناح اليهودي اليساري، لأمكنه احتلال بغداد في أسبوع (ذكر أرييل شارون هذا القول فعلا قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ببضعة أشهر).

الخوف والثقة بالنفس يتعايشان معا في حالة انسجام. ويعزز الإحساس بتفرد اليهود هذا التعايش. ولا يدرك معظم المراقبين الأجانب بأن نسبة كبيرة من الجمهور اليهودي الإسرائيلي تتبنى هذه المواقف الشوفينية. يشبه هذا المزيج الفصامي من المخاوف الجامحة والمبالغة في الثقة بالنفس، الشائع بين اليمين العلماني والمتدينين اليهود، الأفكار التي اعتنقها المعادون للسامية، الذين نظروا إلى اليهود عادة كأشخاص أقوياء وفي الوقت نفسه تسهل هزيمتهم. وهذا ما يفسر أن مواقف أفراد اليمين الإسرائيلي تجاه الأغيار، خاصة تجاه العرب، تشبه إلى حد كبير مواقف المعادين للسامية تجاه اليهود.

يشارك اليمين العلماني والمتدينون اليهود في مخاوف أخرى. يخافون الغرب ورأيه العام، يخافون اليهود اليساريين ويدينونهم، وهي عبارة فضفاضة إلى حد يشمل معظم أنصار العمل، لأنهم ليسوا على قدر كاف من اليهودية، أو يفضلون العرب على اليهود ويعيشون حياة مليئة بالأوهام. ينظرون إلى اليسار كخطر بسبب قدرته على تجنيد أنصار جدد، خاصة في صفوف النخبة المثقفة في البلد.

يفصل موضوع الحالة السوية بين اليمين واليسار الإسرائيلي. يحن اليسار إلى الحالة السوية، ويريد لليهود أن يكونوا شعبا كبقية الشعوب. ومن ناحية أخرى، يتحد اليمين الإسرائيلي كله في امتعاضه من الحالة السوية واعتقاده، جريا على عادة الديانة اليهودية، بأن اليهود كائنات استثنائية، يختلفون عن الأمم والشعوب الأخرى. ويقال أن تبجيل الماضي القومي يعزز هذا التفرد. كما يعتقد اليهود المتدينون

بأن الله خلق اليهود متفردين، ويعتقد كثير من العلمانيين اليمينيين بأن قدر اليهود أن يكونوا متفردين بسبب ماضيهم، ولا خيار لديهم في هذا الصدد. يتمثل سبب آخر للتشابه بين اليمين العلماني واليهود المتدينين، وإن يكن أقل أهمية إلى حد ما، في قدرة اليهود المتدينين على تقديم ذرائع "مقنعة" لتأبيد السيطرة اليهودية على أرض إسرائيل وإنكار بعض الحقوق الأساسية الخاصة بالفلسطينيين. لا تصاغ تلك الذرائع في حجج الأمن القومي وحسب، بل، وهذا أهم، بتعبيرات أن الله أعطى اليهود حق السيطرة على تلك المناطق. فعلماء وساسة الليكود غالبا ما يجدون أنفسهم في حالة اغتراب عن الماضي اليهود والقيم اليهودية عندما يحاولون الحديث بكفاءة عن هذا الموضوع، أو حتى فهم مسائل كهذه بصورة مناسبة. يستطيع المتدينون فقط تقديم مسوِّغات عميقة لسياسة الليكود، التي لا تستند إلى اعتبارات استراتيجية قصيرة المدى، بل إلى التاريخ الطويل للعلاقة الخاصة بين الرب وشعبه المختار.

ورغم وجود هذه المشاعر بصورة قوية لدى أفراد إسرائيل ب، يمكن العثور عليها أيضا بين أفراد إسرائيل أ. تفسر هذه الحقيقة التنازلات السياسية المقدمة إلى الأحزاب الدينية (كثيرا ما عزاها المراقبون الأجانب بصورة خاطئة إلى حجم و/أو قدرة الأحزاب الدينية على ممارسة الضغ). أثرت هذه المشاعر، أيضا، على التعليم والتاريخ اليهوديين. منذ أواخر الخمسينات، وخاصة منذ حرب ١٩٦٧، قام المؤرخون الإسرائيليون اليهود، في كثير من الأحيان، وهم علماء في حقول متحالفة ورجال دعاية - رغم أنهم أقل زيفا من زملائهم في الغرب - بتجميل وإضفاء مسحة رومانسية على المجتمعات اليهودية في الماضي، وحرصوا على تفادي نقدها بطريقة طبيعية. وقد شكَّلت هذه النزعة الاعتذارية مدرسة جديدة. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، وجه الصهاينة الأوائل وآخرون في حركات يهودية حديثة انتقادات عنيفة إلى العديد من التقاليد الدينية الثقافية، وحاولوا إحداث تغيير، وفي حالات عديدة تحطيم، أجزاء من تلك التقاليد. منذ أواخر الثمانينات كتب جيل أصغر من المؤرخين الإسرائيليين، ربما بسبب الاستقطاب المتنامي في المجتمع اليهودي الإسرائيلي، ونشروا بعض الأعمال النقدية التي هزت إلى حد ما المدرسة الاعتذارية السائدة.

تتطلب المقارنة بين النظرة إلى العالم والمخاوف لدى اليمين العلماني وتلك الموجودة لدى الحريديم المزيد من التفسير. يمكن فهم المفاهيم الحريدية الأساسية

القياسية للعالم فقط كمخلفات من الأزمنة ما قبل الحديثة. يقدم ميناخيم فريدمان، اليهودي المتغربن الذي يحترم الديانة، والمعتبر حجة في تاريخ الحريديم في فلسطين الانتدابية ودولة إسرائيل، في مقالة نشرها في جريدة دافار يوم ٤ نوفمبر ١٩٨٨ ، وصفا ممتازا لتلك المفاهيم الحريدية. كتب فريدمان تلك المقالة لتفسير الخيبة الناجمة عن المحاولة الفاشلة لبعض المرشحين على القائمة الدينية عام ١٩٨٨ الذين حاولوا الدفاع عن بعض الاعتدال في معاملة الفلسطينيين، قائلاً:

العالم الحريدي يهودي متمركز على نفسه. وجوهر الفكر الحريدي فكرة الفجوة الفاصلة بين اليهود والأغيار. لهذا السبب فالتحالف بين الحريديم وحمائم حزب العمل مستحيل. لا يوجد شئ يمكن تسميته بالحمامة الحريدية. والذين يتكلمون عن العالم الحريدي لا يفهمون أغلب الأحيان كيفية قراءة علاماته. لا يفهمون ذلك العالم وشخصياته المرموقة. الفرق بين الحريديم والحمائم والصقور ليس كبيراً ينطلق الحريديم الحمائم والصقور من نقطة مشتركة: ينظرون إلى العلاقة بين اليهود والأغيار كما نظروا إليها قبل قيام إسرائيل. يفترضون أن اليهود والأغيار على طرفي نقيض. يريد الأغيار قتل اليهود وتدميرهم، والخلافات الشرعية بين اليهود يجب أن تتمحور حول كيفية الرد على تلك الرغبة الدائمة من جانب الأغيار. نرى في الوقت الحاضر خيارين حريديين حول كيفية الرد: يقول الحاخام شاخ [الزعيم الروحي لأحد الحزبين الحريديين] بما أن الأغيار يكرهوننا نحتاج إلى التصرف بهدوء والإحجام عن استفزازهم بعدم تذكيرهم بوجودنا. ويقول حاخام اللوبوفيتشر [الحاخام ميناخيم شنيرسون، الذي توفي عام ١٩٩٢] علينا أن نكون أقوى. هذان هما الخياران، وكلاهما ناجم عن مفهوم مشترك حول الفجوة الفاصلة بين اليهود والأغيار. لا يمكن القول بأن الحاخام شاخ حمامة على غرار شلوميث ألوني زعيمة سابقة لحزب ميريتس] لأنها تؤمن بنزعة إنسانية تركز على المساواة الأساسية بين بني البشر والشعوب، وعلى قدرة مختلف البشر والشعوب على التواصل. أما الحاخام شاخ فيعتقد أن التواصل مع الأغيار غير ممكن، وكل ما يمكنه فعله هو العمل على تناسي وجود اليهود. يقول حاخام الليبوفيتشر يجب أن نكون أقوى لنحمي أنفسنا من الأغيار الذين يريدون دائماً تدميرنا. يمكن فهم [الفرق بين الزعيمين] من موقفهم تجاه معاهدة السلام مع مصر. كلاهما ينفي وجود السلام ويقول بأنه لن يتحقق أبداً، ورغم ذلك يضيف الحاخام شاخ ضرورة تقليص [الخسائر اليهودية] إلى الحد الأدنى بواسطة التزام الهدوء. ويقول حاخام

الليبوفيتشر بما أن السلام غير موجود مهما كانت الظروف، يجب أن نرفض تقديم تنازلات. الحمامة الحريدي لا يؤمن بأي نوع من السلام، لذلك كل الحديث عن ائتلاف مصغر [يضم الحريديم] برئاسة العمل لا أساس له من الصحة.

وقد برهنت التطورات السياسية اللاحقة في إسرائيل، بما فيها انتخاب نتنياهو في مايو ١٩٩٦ على صحة تحليل البروفيسور فريدمان. ومن منظور حريدي آخر، أيد الحاخام عوباديا يوسف، الزعيم الروحي لحزب شاس، هذه المقالة، فذكر في مقالة نشرها يوم ١٨ سبتمبر ١٩٩٨: بما أن إسرائيل عاجزة عن هدم جميع الكنائس المسيحية في الأرض المقدسة، فهي عاجزة أيضا عن الاحتفاظ بالمناطق. وقد دعا الحاخام يوسف استنادا إلى هذه الذريعة، إسرائيل إلى تقديم تنازلات إقليمية للحيلولة دون وقوع حرب تزهق فيها أرواح يهودية. لم يذكر الحاخام يوسف الفلسطينيين، ولا حتى أكثر حقوقهم بدائية.

تشبه النظرة الحريدية إلى العالم نظرة اليمين العلماني، فنظرة ساسة الليكود إلى العالم، التي يدعمها الأتباع بقوة، هي بصورة أساسية الموقف التقليدي لليهود المتدينين، نظرة جرت علمنتها لكنها حافظت على الخصائص الجوهرية. وقد أسفر تحالف الأحزاب الدينية والعلمانية عن انتصار نتنياهو في انتخابات عام ١٩٩٦ وتم تشكيل هذا التحالف رغم الخلافات السياسية العميقة بين الجانبين. يتعلق الخلاف الأول بالديمقراطية، خاصة كما تتجلى في بنية الأحزاب الإسرائيلية، ويتمحور الخلاف الثاني حول الصهيونية.

جري تشكيل جميع الأحزاب السياسية في إسرائيل، ماعدا الحريدية منها، على غرار الأحزاب في البلدان الغربية، خاصة في الولايات المتحدة. معظم الأحزاب الإسرائيلية، مثلا، تتبع طريقة الانتخابات التمهيدية لاختيار مرشحها لانتخابات الكنيست. أما بنية الأحزاب الحريدية فمختلفة وغريبة، وربما تماثل ما عرفته إيران فقط.

ففي كل الأحزاب الحريدية بنية تتكون من طبقتين. الطبقة الدنيا من حيث الأهمية تضم الساسة العاملين، الذين يعلنون بتواضع على الملأ، حتى لو كانوا أعضاء في الكنيست أو وزراء، بأنهم يخدمون المجالس الحاخامية لحكام الحزب، التي يسترشدون بتوجيهاتها قبل اتخاذ القرارات. ولا يقبل أحد من الساسة الحريديم توجيهات من مجالس حاخامية لأحزاب حريدية أخرى غير أحزابهم. كما تبقى مداوات المجالس سرية، ولا تقبل قراراتها المراجعة لأنها تعتبر نوعا من الإلهام

الإلهي. ولا يُنتخب أعضاء المجالس من جانب حاخامات أو عامة الناس، فعندما يموت عضو في مجلس يُنتخب خليفته بواسطة بقية الأعضاء. ويتخذ الأعضاء الحاخاميون، الذين يسميهم أتباعهم بالحكماء جميع القرارات وينظرون بعين الشك إلى البنى المعروفة للأحزاب لأنها مبتكرة وحديثة. لذلك، فإن البنية الحزبية الحديثة، بما فيها فروع العضوية، والانتخابات الداخلية وعدد آخر من الخصائص الموجودة في الحزب القومي الديني، غائبة تماما لدى الأحزاب الحريدية. ومنشأ الاختلاف، وحتى العداوة أحيانا من جانب الأحزاب الحريدية لبعضها، ناجم عن الاعتراف “ بحكماء ” حاخامين مختلفين كمرجعيات مطلقة. وقد حافظت الأحزاب الحريدية على صفتها الذكورية، فلا وجود حتى الآن لحريديات سياسيات ويمكن القول أن تمرق الصف الحريدي حال دون السيطرة السريعة للحريديم على جزء من المجتمع الإسرائيلي.

سادت بنية مشابهة للبنية الحزبية الحريدية في المجتمعات اليهودية منذ القرن الثاني بعد الميلاد حتى زوال الاستقلالية الذاتية للمجتمع اليهودي الطائفي في الدول القومية الحديثة. كانت الممارسات الحريدية، وما زالت، تستهدف الحفاظ على الطريقة اليهودية في العيش كما كانت قبل الأزمنة الحديثة. وقد شكّلت الأحزاب الحريدية في محاولتها للحفاظ على النظام الاجتماعي اليهودي القديم حتى وقتنا الحاضر عملية صدام سياسية رجعية ضد موجة الحداثة التي غمرت الحزب القومي الديني. وكثيرا ما تغطي ردة الفعل الحريدية نفسها، كما تفعل مثيلات لها، تحت قناع رغبة رومانسية في العودة إلى الماضي الذي تزعم بأنه كان أكثر سعادة وأكثر أمنا من ناحية عاطفية من الحياة الحديثة بكل قلقها وشكوكها. لذلك، تسعى الجماعة الحريدية المشبعة بالأيديولوجيا إلى قمع كافة شكوك أعضائها وتعتقد بأن السعادة تتحقق بهذه الطريقة.

مسألة الخلاف بين الحريديم ومعظم اليهود الإسرائيليين حول الصهيونية معقدة. يتفق الحريديم والصهاينة حول أهمية المبدأ الذي يحتل مكانة مركزية في الصهيونية، أي ديمومة عداوة الأغيار لليهود، وهي عداوة تختلف عن كراهية الغريب أو مشاعر العداة للأقليات. تشبه هذه النظرة، بالطبع، موقف المعادين للسامية من اليهود (ربما يفسر هذا التشابه العلاقة السياسية بين بعض الصهاينة، بداية من هرتسل، وأعداء السامية «المعتدلين» الذين أرادوا فقط تخليص مجتمعاتهم من اليهود أو تقليص عددهم دون قتلهم). تتفق الأفكار المتصلة بالعداء للسامية والمخاوف

التي تثيرها، وهي أفكار يعتنقها اليمين العلماني والحريديم، مع هذا المبدأ المركزي في الصهيونية، بطريقة أفضل من تلك الأفكار التي تعتنقها أحزاب العمل وميرتس اليسارية، والتي كثيرا ما يتهمها الليكود بالنقص في صهيونيتها. ورغم ذلك، تصطدم الأيديولوجيا الحريدية مع الصهيونية في مبادئ معينة. أفضل مثلين لها ما تستهدفه الصهيونية من جميع اليهود كلهم، أو أكبر عدد منهم، وفي تأسيس دولة يهودية في فلسطين. تتناقض هذه الأهداف الصهيونية أو المعتقدات مع التفسيرات الحريدية للتلمود والتعليقات التلمودية، وبسبب هذا التناقض، أعلن الحريديم وما زالوا معارضتهم للصهيونية، فهم يدعون بأن دولة إسرائيل مجرد منفى آخر لليهود، ويتحاشون استخدام الرموز الدينية. كل الأحزاب الإسرائيلية، بما فيها الحزب القومي الديني، باستثناء أحزاب الحريديم تبدأ اجتماعاتها أو تنهيتها بنشيد «هتكفا» النشيد القومي الإسرائيلي ونشيد الحركة الصهيونية العالمية. ولا تفعل الأحزاب والمنظمات الحريدية هذا الأمر، بل تتلو بدلا منه صلوات يهودية. وكثيرا ما تدين وسائل الإعلام الحريديم بسبب امتناعهم عن غناء «هتكفا» في المناسبات الرسمية. وبينما لا ترفع سوى الراية الإسرائيلية في جميع المؤتمرات الصهيونية العالمية التي تعقد في إسرائيل، ترفع في المؤتمرات الحريدية، حسب الترتيب الأبجدي، أعلام جميع الدول التي جاء منها أعضاء في المؤتمر.

يستند الاعتراض الحريدي على الصهيونية إلى التناقض بين اليهودية الكلاسيكية، التي يواصل الحريديم حمل ميراثها، والصهيونية. ومن المؤسف أن العديد من المؤرخين الصهاينة قد حول المسائل المطروحة في هذا المجال إلى مسائل مبهمة. ومن المهم، هنا، تقديم بعض الشرح المفصل. يقال في مقطع تلمودي شهير في تراكتات كيتوبوت صفحة ١١١، وهو مقطع يتردد صداه في أجزاء أخرى من التلمود، أن الله أخذ على اليهود ثلاثة أيمان، يتناقض اثنان منها بوضوح مع الصهيونية: ١ - ألا يتمرد اليهود على الأغيار. ٢ - ألا يهاجروا هجرة جماعية كبيرة الحجم إلى فلسطين قبل قدوم المسيا (أما القسم الثالث، الذي لا نناقشه في هذا المقام، فيمنح اليهود حق الصلاة بلا حماسة شديدة من أجل قدوم المسيا، كي لا يأتي قبل موعده المحدد.) وقد ناقش الحاخامات بصورة مستفيضة على مدار تاريخ اليهود ما بعد التلمود الأيمان الثلاثة. كان أحد الاهتمامات الأساسية في ذلك النقاش التساؤل عن ما إذا كانت هجرة يهودية محددة إلى فلسطين تعبيرا جزءا من الهجرة الجماعية

المحظورة. وعلى مدار ١٥٠٠ سنة مضت، فسرت الغالبية العظمى من أهم حاخامات اليهودية التقليدية العهود الثلاثة والوجود المتواصل لليهود في المنفى باعتبارها التزامات دينية الهدف منها التكفير عن خطايا اليهود التي دفعت الرب إلى نفيهم. وفي السنوات الأخيرة، ركز عدد من العلماء اليهود في إسرائيل، الذين بلوروا طريقة أكثر صدقا للتأريخ اليهودي، على جوهر التفسيرات الحاخامية للأيمان الثلاثة. وقد قدم أفيزير رافيتسكي، مثلا، في كتابه الذي استقبل بتقدير في الأوساط الأكاديمية : الميسائية، الصهيونية، والراديكالية الدينية اليهودية (نشر بالعبرية في إسرائيل عام ١٩٩٣) تلخيصا جيدا للتفسيرات الحاخامية للأيمان الثلاثة من القرن الخامس بعد الميلاد.

لاحظ رافيتسكي في تحليله بأن الحاخام شموئيل ابن هوشعنا، الذي عاش في القرن التاسع، أحد زعماء اليهود في فلسطين استشهد في صلاة شاعرية بكلمات اعتبرها من كلام الله «أخذت العهد على شعبي ألا يتمردوا على المسيحيين والمسلمين، طلبت منهم أن يبقوا صامتين، حتى أقضي عليهم بنفسي، كما فعلت في سدوم». ويواصل رافيتسكي: في القرن الثالث عشر عندما هاجر بعض الحاخامات والشعراء إلى فلسطين لأسباب دينية، استشهد حاخامات آخرون في عديد من مناطق العالم بنظرية الأيمان الثلاثة للتحذير من انتشار تلك الظاهرة الخطيرة.

فقد حذر الحاخام اليعازر بن موشي، الزعيم الروحي للطائفة اليهودية في وورنزيبرغ في ألمانيا، اليهود المهاجرين بالخطأ إلى فلسطين بأن الله سيعاقبهم بالموت. وفي الفترة نفسها كتب الحاخام عزرا من غيرونيا في أسبانيا بأن اليهودي الذي يهاجر إلى فلسطين يتخلى عن الله، الموجود في الدياسبورا فقط، لأن غالبية اليهود تعيش هناك، وليس في فلسطين.

ركز رافيتسكي في كتابه على استمرار ظهور مواقف مشابهة وأقوى من هذه حتى القرن التاسع عشر. في أواسط القرن الثامن عشر، كتب الحاخام الألماني المشهور يونثان أيبشوتز بأن الهجرة اليهودية الجماعية إلى فلسطين، قبل قدوم المسيا محظورة حتى لو كانت بموافقة جميع دول العالم. وفي مطلع القرن التاسع عشر، وافق موسى مندلسوهن، إلى جانب أنصار آخرين للتنوير اليهودي، وكذلك وافق معارضوهم مثل الحاخام رافائيل هيرش، مؤسس الأرثوذكسية الحديثة في ألمانيا، على نظرية الأيمان الثلاثة وواصلوا استخراج الحظر منها. كتب هيرش في عام ١٨٣٧ بأن الله أمر اليهود «ألا يقيموا دولة لأنفسهم بجهودهم الذاتية». وكان

الحاخامات في أوروبا الوسطى أكثر تشددا. ففي عام ١٨٣٧، العام نفسه الذي حضر فيه هيرش على اليهود إعلان دولة يهودية، قتل زلزال وقع في شمالي فلسطين، معظم سكان صفد، وبينهم كثير من اليهود، الذين هاجر بعضهم قبل الزلزال بوقت قصير. وقد أرجع الحاخام موشي تيتلباوم، أحد الحاخامات النمساويين البارزين، الزلزال إلى غضب الرب من الهجرة اليهودية الضخمة إلى فلسطين.

قال تيتلباوم: «ليس من إرادة الله أن نذهب إلى أرض إسرائيل بجهودنا وإرادتنا». وكان الحاخام نحمانيدس، المتوفى عام ١٢٧٠، الزعيم اليهودي الوحيد الذي اعتقد أن على اليهود ألا يهاجروا وحسب، بل عليهم احتلال أرض إسرائيل أيضا. وقد تجاهل الحاخامات الآخرون في تلك الفترة وعلى مدار قرون طويلة، أو عارضوا بشدة، رأي نحمانيدس.

في سبعينات القرن العشرين، أصبح نحمانيدس، بعد سبعة قرون من موته، القديس الحارس للحزب القومي الديني ومستوطني غوش إيمونيم. كما زعم حاخامات الحزب القومي الديني أن الأيمان الثلاثة لا تنطبق في الأزمنة المسيائية، ورغم عدم ظهور المسيا بعد، إلا أن عملية كونية تدعى بداية الخلاص قد بدأت. يقال أن بعض القوانين الدينية السابقة يجب إهمالها في هذه الفترة [المسيائية] وأن بعضها الآخر يجب تغييره.

لذلك، تمحور الخلاف بين الحزب القومي الديني والحريديم على ما إذا كان اليهود يعيشون في أوقات عادية أو في فترة بداية الخلاص. وقد عزز الحريديم، بفضل تحقيقهم لبعض المكاسب السياسية، وتعزيز ثقتهم في أنفسهم بعد انتخابات ١٩٨٩، معارضتهم المبدئية للصهيونية والحزب القومي الديني.

في عام ١٩٨٩ عقد الحاخامان شاخ ويوسف، أهم حاخامات الحريديم، مؤتمرا في بني براك في إسرائيل، ونشر حديثهما المكرس للتعبير عن معارضة الصهيونية ونظرية بداية الخلاص في الجريدة الحريدية ياتيد نئمان، يوم ١٨ سبتمبر ١٩٨٩. عالج الحاخامان، أيضا، من منظور هالاخي المسألة السياسية الحيوية في إسرائيل: إمكانية إعطاء بعض المناطق في أرض إسرائيل للأغيار، أي للفلسطينيين. وقد دحضا موقف الحزب القومي الديني وغوش إيمونيم بأنه لا يجوز حسب بداية فترة الخلاص إعطاء أجزاء من الأرض للأغيار. قال الحاخامان شاخ ويوسف أن اليهود ما زالوا يعيشون في أزمان عادية لا ينتظر فيها مساعدة الرب في إنقاذ حياة اليهود بصفة دائمة. قدم الحاخام يوسف، المعروف باطلاعه الواسع على الهالاخاه، تحليلا

عميقا، ولاحظ بصواب أن الحاخام هيرش يوافق الرأي في هذا الصدد، كما بدأ بطرح الخلاف مع الحزب القومي الديني وحاخامات غوش إيمونيم الذين يجادلون بأن بداية الخلاص ووصية الرب باحتلال أرض إسرائيل أكثر أهمية من إنقاذ حيوات اليهود التي يمكن فقدانها في حرب الفتح. اعترف الحاخام يوسف بأن اليهود في الزمن الميسائي سيكونون أقوى من غير اليهود وسيكون عليهم آنذاك احتلال أرض إسرائيل لطرد جميع الأغيار وهدم الكنائس المسيحية الوثنية، ورغم ذلك ذكر يوسف أن الأزمنة الميسائية لم تأت بعد وكتب:

«ليس اليهود في الواقع أقوى من الأغيار، ولا يملكون القدرة على طرد الأغيار من أرض إسرائيل لأن اليهود يخشون الأغيار. لذلك، وصية الرب لا تصلح الآن. يعيش الأغيار الوثنيون بيننا بلا إمكانية لطردهم أو حتى تحريكهم. الحكومة الإسرائيلية ملزمة حسب القانون الدولي بحراسة الكنائس المسيحية في أرض إسرائيل، رغم أنها بالتأكيد أماكن للوثنية. يوجد هذا الأمر، رغم أن الشريعة [الدينية] تأمرنا بتدمير الأوثان وخدمها حتى نقتلع جذورها من أرضنا وأية منطقة نستطيع احتلالها. ومن المؤكد أن هذه الحقيقة ما زالت تضعف المعنى الديني لفتوحات الجيش الإسرائيلي [عام ١٩٦٧]».

يبين المقطع الذي استشهدنا به بصورة جيدة جزءا من سياسة إسرائيل الواقعية قبل انتخابات عام ١٩٩٦، اعتبر بيرس ومنتياهو الحاخام يوسف شخصية سياسية هامة وكثيرا ما غازلاه علانية. حدث هذا الأمر، رغم قناعة يوسف العلنية بأن على اليهود، عندما يصبحون أقوىاء بصورة كافية، طرد غير اليهود كلهم من البلد، وتدمير كل الكنائس المسيحية. أشاد اليساريون ومعظم الداعين إلى السلام في إسرائيل بالحاخامين يوسف وشاخ لموافقتهما على الانسحاب من المناطق المحتلة ولكنهم تجاهلوا ذكر، وحتى أخفوا، النقطة الجوهرية الأساسية في موقف شاخ ويوسف. وقد تجنب القسم الأعظم من وسائل الإعلام الأجنبية تقديم تقارير عن النقاط الأساسية في خطاب يوسف. الحقيقة، هنا، أن موقف يوسف - شاخ يشكل جزءا من الصميم الصقري للسياسة الإسرائيلية.

اعترف الحاخام يوسف في حديثه بالخطر الهالخي على بيع عقارات لغير اليهود في أرض إسرائيل، لكنه حصر هذا الخطر في وقت يؤدي فيه هذا العمل إلى عدم تعريض حياة اليهود للخطر. كما تعامل بالطريقة نفسها مع التساؤل حول اعتماد اليهود على مساعدة من الرب أو اتخاذ الحيطة ضد خطر الحرب. فادعى بأن المسألة

تشبه التساؤل حول هل نعطي الطعام في يوم الغفران ليهودي مريض لإنقاذ حياته ، أو حياتها. في هذه الحالة، يجب تقديم الطعام إلى اليهودي المريض، حتى لو اختلف الأطباء فيما بينهم حول مدى ما يشكله الصوم من خطر على الحياة. استنادا إلى هذا المنطق، حثّ الحاخام يوسف : حتى لو اختلف الخبراء العسكريون مع بعضهم حول ما إذا كان الانسحاب من المناطق سيبعد خطر الحرب، على الحكومة أن تأمر بالانسحاب. أشار يوسف، غير المقتنع بذريعة الاعتماد على الرب، بأن اليهود قُتلوا في الحروب السابقة، وبأن القدوم المعجز للميسيا لإقامة حكم الرب على العالم سيحدث بلا فقدان حياة يهودي واحد. وأشار، أيضا، إلى أن دولة إسرائيل مليئة باليهود الخاطئين الذين يستفزون الرب. واستشهد بعدد كبير من المراجع الحاخامية المتففة معه بأن الأيمان الثلاثة ما زالت سارية المفعول.

لم تثر آراء الحاخام يوسف رابين أو بيرس أو نتنياهو، ولم تقنع سعة اطلاعه المدهشة، ثلاث صفحات كبيرة من الخط الصغير، أحدا من حاخامات الحزب القومي الديني. واصل الحاخامان يوسف وشاخ - تحولًا لاحقًا إلى عدوين - معارضة الصهيونية ونظرية بداية الخلاص، كما واصل الدعوة إلى تنوعياتهما المختلفة للأصولية اليهودية، ونجحا في العام ١٩٩٦ في امتلاك ولاء ١٤ عضوا من أصل ١٢٠ عضوا في الكنيسة. وقد منع الحاخام شاخ، الأكثر تطرفا في معارضته للصهيونية من الحاخام يوسف، أعضاء حزبه في الكنيسة أن يصبحوا وزراء في حكومة نتنياهو الصهيونية. ورغم ذلك، أمر شاخ نواب حزبه بتأييد حكومة نتنياهو. وقد كافأ نتنياهو حزب يهودوت هتوراه بطريقة مبتكرة بتمكينه من السيطرة على وزارة الإسكان. عين نتنياهو نفسه وزيرا للإسكان، ووقع بلا تدقيق أبدا على كل ما قدمه نائب الوزير رافيتس من حزب يهودوت هتوراه. ومن الواضح أن اللجوء إلى هذا الإجراء تم لتفادي الانضمام إلى حكومة صهيونية بصفة رسمية، مع الاستفادة من كل مزاياها.

خلافًا للحاخام شاخ، أمر الحاخام يوسف أعضاء حزبه بأن يصبحوا وزراء في حكومة نتنياهو. وهذه الحقائق تبين الأهمية السياسية لأفكار يوسف وشاخ. عبّر يوسف بوضوح عن أفكاره بشأن المناطق ليس كما يعكسها الموقف الحريدي وحسب، ولكن من خلال تشابهها الواضح إلى حد كبير مع السياسة الخارجية لدولة إسرائيل. فقد ذكر أن واجب اليهود الديني طرد جميع المسيحيين من دولة إسرائيل، شريطة ألا يؤدي ذلك إلى تعريض الحياة اليهودية للخطر، كما بنى موقفه بشأن تقديم

تنازلات يهودية لغير اليهود في دولة إسرائيل على افتراض أن عدم تقديمها قد يكون أشد خطورة على اليهود، ولا شك بأنه يفضل احتلالا دائما لكل المناطق لو توفرت لديه قناعة بأن ذلك لن يحرض العرب على إيذاء اليهود.

اعتقد زعماء الحكومة الإسرائيلية، بعد حرب عام ١٩٦٧، بدعم كامل تقريبا من اليهود الإسرائيليين، بأن العرب عاجزين عن إيذاء إسرائيل، لذلك رفضوا تقديم تنازلات. ولكن، بعد تكبد خسائر فادحة في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وخوفا من اندلاع حرب أخرى، وافقت حكومة دولة إسرائيل، ومرة أخرى بتأييد كامل تقريبا من معظم الإسرائيليين، على إعادة سيناء إلى مصر.

وقد فكر القادة الإسرائيليون في عام ١٩٨٣، حتى بعد مجزرة صبرا وشاتيلا، في إمكانية احتلال ثلث لبنان بصفة دائمة، وممارسة الهيمنة على الثلثين الباقين. وقد توصل شارون إلى اتفاقية سلام، تعتمد هذه الشروط، مع حكومة لبنان السورية. لكن حرب العصابات التي شنها اللبنانيون في عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤، ونجمت عنها خسائر إسرائيلية كبيرة، دفعت القادة الإسرائيليين إلى التخلي عن تلك المخططات والتراجع.

ورغم أن سياسة إسرائيل الخارجية تصاغ وتمارس من جانب يهود علمانيين، إلا أنها قد أظهرت حتى الوقت الحاضر جوهرها مستمدا في جانب منه من الماضي الديني اليهودي. ومن الصحيح أن الحركة الصهيونية، التي مرت بعملية علمنة جزئية، حافظت أيضا على العديد من المبادئ الدينية اليهودية. إن الحاخام يوسف، وبن غوريون، وشارون، وكافة الساسة الرئيسيين في إسرائيل يقفون على أرضية مشتركة في مرافعاتهم السياسية.

ترجمة ح. خضر

1 Jewish Fundamentalism In Israel, Pluto Press 1999

References:

- Ernst, C.W., Words of Ecstasy in Sufism, New York Press, Albany, 1985.
- L'Alchimie du Bonheur Parfait
- En Islam Iranien
- Ibn Arabi ou la Quête du Souffre Rouge
- Les Soufis d'Andalousie
- Emile Dermenghem, Vie des Saints Musulmans
- Asim Palacios
- Obras Escogidas
- Ibn el Arabi, Las Contemplaciones de los Misterios, Introduccion, edicion, traduccion & notas de Suad Hakim & Pablo Beneito .Murcia, 1996 .Intro.pVII.
- Cambridge University Press .A.J.Arberry .(with other fragments).
- Trois Oeuvres Inédites de Mystiques Musulmans
- Exègèse Coranique et Langage Mystique.
- L'Imagination Créatrice dans le Soufisme d'Ibn Arabi.
- Histoire et Classification de l'Oeuvre d'Ibn Arabi
- Las Contemplaciones. .
- La Clef du Monde Suprasensible
- Le Livre de Théophanies d'Ibn Arabi.
- Paris, B.N .Arabe #6104 .Fol .1-75.
- Chester Beatty Library, Dublin, #5493)fol.25a-50b.)